

الرِّسَالَة ٣٧

يَسُوعُ يَغْسِلُ أَرْجُلَ تَلَامِيذِهِ

(Arabic - Jesus washes His disciples' feet)

أحبابائي.. حديثنا اليومَ مَوْضُوعُهُ: يَسُوعُ يَغْسِلُ أَرْجُلَ تَلَامِيذِهِ.

ومن إنجيل يوحنا الأصحاح الثالث عشرَ نقرأ العددين الرابع والخامس:

"قَامَ يَسُوعُ عَنِ الْعِشَاءِ وَخَلَعَ ثِيَابَهُ وَأَخَذَ مِئْشَقَةً وَاتَّرَرَ بِهَا.. ثُمَّ صَبَّ مَاءً فِي مِغْسَلٍ وَابْتَدَأَ يَغْسِلُ أَرْجُلَ التَّلَامِيذِ وَيَمْسَحُهَا بِالْمِئْشَقَةِ الَّتِي كَانَ مُتْرَرًا بِهَا".^١

أَرَادَ الْيَهُودُ أَنْ يُنصِبُوا يَسُوعَ النَّاصِرِيَّ مَلِكًا عَلَيْهِمْ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَدَعَهُمْ يُنْفِذُوا مَا أَرَادُوا.. وَأثناء مُحَاكَمَتِهِ الَّتِي انْتَهَتْ بِالصَّلْبِ سَأَلَهُ بِيلاطس الْوَالِي: "أَنْتَ مَلِكُ الْيَهُودِ؟". أَجَابَهُ: "مَمْلَكَتِي لَيْسَتْ مِنْ هَذَا الْعَالَمِ.. لَمْ يَنْفِ يَسُوعُ أَنَّهُ مَلِكٌ بَلْ صَحَّ الْفَهْمُ الْخَاطِئُ.. لِأَنَّ مَمْلَكَتَهُ تَخْتَلِفُ فِي مَبَادِئِهَا وَقَوَائِينِهَا وَرَعَايَاهَا عَنْ مَمَالِكِ الْعَالَمِ. إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ هُمْ رَعَايَا مَلَكُوتِهِ يَنْفِذُونَ مَشِيئَتَهُ عَلَى الْأَرْضِ وَيَعْلَنُونَ مَلَكَةَ عَلَيْهِمْ.. هُمْ فِي الْعَالَمِ وَلَكِنَّهُمْ لَيْسُوا مِنَ الْعَالَمِ وَحِينَ يَرْفَعُونَ صَلَاتَهُمْ إِلَى اللَّهِ يَقُولُونَ لِلآبِ السَّمَاوِيِّ: "لَتَكُنْ مَشِيئَتُكَ كَمَا فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ عَلَى الْأَرْضِ".^٢

قَدْ يَتَمَلَّكُنَا الْعَجَبُ حِينَ نَتَأَمَّلُ يَسُوعَ وَهُوَ يَصُبُّ مَاءً فِي مِغْسَلٍ وَيَغْسِلُ أَرْجُلَ تَلَامِيذِهِ فِي عُلْيَةِ أَعْدُوهَا لِعِشَاءٍ مَعَهُ.. وَنَتَسَاءَلُ: كَيْفَ أَنْ رَبَّ الْمَجْدِ وَهُوَ مَلِكُ الْمُلُوكِ وَرَبُّ الْأَرْبَابِ يَقُومُ بِعَمَلِ اعْتِدَانِهِ مِنَ الْعَبِيدِ لِلسَّادَةِ الَّذِينَ يَسْتَعِدُّونَهُمْ؟! لَقَدْ أَصَابَتْ الدَّهْشَةَ سِمْعَانَ بَطْرُسَ عِنْدَمَا جَاءَ السَّيِّدُ الْمَسِيحُ إِلَيْهِ وَانْحَنَى لِغَسْلِ رِجْلَيْهِ.. فَصَاحَ: "يَا سَيِّدُ أَنْتَ تَغْسِلُ رِجْلِي؟!". وَكَأَنِّي بِهِ يَرِيدُ أَنْ يَقُولَ: يَا سَيِّدُ أَنْتَ مَلِكٌ.. وَلَيْسَ هَذَا مَا يَقُومُ بِهِ الْمُلُوكُ!.

لَمْ يَنْسَ بَطْرُسَ الْجُمُوعَ الَّتِي كَانَتْ مُحْتَشِدَةً عِنْدَ مَدَاخِلِ أُورُشَلِيمَ وَالْجُمُوعَ الَّتِي تَبَعَتْهُ إِلَى الْهَيْكَلِ وَقَدْ اسْتَقْبَلَتْ النَّاصِرِيَّ بِسُجُودِ النِّخْلِ هَاتِفَةً: "أَوْصِنَا مُبَارَكُ الْآتِي بِاسْمِ الرَّبِّ مَلِكُ إِسْرَائِيلِ". إِنَّهُ يَسُوعَ الَّذِي هَنَقَتْ لَهُ الْجُمُوعُ وَرَحِبَتْ بِهِ مَلِكًا عَلَى إِسْرَائِيلِ. يَنْحَنِي لِغَسْلِ أَرْجُلِ صَيَّادِي سَمَكٍ!. تَذَكَّرَ بَطْرُسَ مَا حَدَثَ فَصَاحَ: "يَا سَيِّدُ أَنْتَ تَغْسِلُ رِجْلِي!". مَا حَدَثَ أَنْ مَلِكًا يَنْحَنِي لِغَسْلِ أَرْجُلِ رِجَالِ حَاشِيَتِهِ. إِنَّ تَنَازُلَ الرَّبِّ وَاتِّسَاعَهُ وَحُبَّهُ الْعَجِيبَ يَفُوقُ تَصَوُّرَ بَطْرُسَ وَتَصَوُّرَنَا كَذَلِكَ.. فَكَيْفَ أَنْ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ الطَّاهِرَتَيْنِ تَمْتَدُّ لِغَسْلِ رِجْلِي إِنْسَانٍ بَشَرِي؟!^٣

يَتَعَذَّرُ عَلَيْنَا أَنْ نَتَخَيَّلَ.. كَمَا تَعَذَّرَ أَيْضًا عَلَى بَطْرُسَ أَنْ يَتَخَيَّلَ.. لِأَنَّ مَا حَدَثَ فِي الْأَيَّامِ الَّتِي سَبَقَتْ الصَّلْبَ وَمَا حَدَثَ يَوْمَ الصَّلْبِ لَمْ يَسْتَطِعْ عَقْلُ بَطْرُسَ أَنْ يَسْتَوْعِبَهَا.. لَقَدْ سَبَقَ وَقَالَ بَطْرُسَ لِلرَّبِّ يَسُوعَ: "أَنْتَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ الْحَيِّ".. إِنَّهُ عَسِيرٌ عَلَى الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ أَنْ يَرَى الْمَسَامِيرَ تَدْقُ فِي يَدَيِ ابْنِ اللَّهِ الْمُتَجَسِّدِ.. إِنَّهُمَا الْبِدَانُ اللَّتَانِ صَنَعَتَا الْمُعْجَزَاتِ..! أَمْتَدَّتَا إِلَى الْأَبْرَصِ فَطَهَّرَتْهُمَا كَمَا جَاءَ بِإِنْجِيلِ مَتَّى الْأَصْحَاحِ الثَّامِنِ الْعَدَدِ الثَّلَاثِ.. وَأَمْتَدَّتَا إِلَى الْأَعْمَى فَنَقَلَتْهُ مِنْ ظِلْمَةٍ إِلَى نُورٍ كَمَا جَاءَ بِإِنْجِيلِ مَرْقَسِ الْأَصْحَاحِ الثَّامِنِ الْعَدَدِ الثَّانِي وَالْعِشْرِينَ.. وَأَمْتَدَّتَا إِلَى النَّعْشِ فَأَقَامَتِ الْمَيِّتَ كَمَا جَاءَ بِإِنْجِيلِ لُوقَا الْأَصْحَاحِ السَّابِعِ الْعَدَدِ الرَّابِعِ عَشَرَ.. إِنَّهُ بِهَاءُ مَجْدِ اللَّهِ وَرَسْمِ جَوْهَرِهِ وَحَامِلِ كُلِّ الْأَشْيَاءِ بِكَلِمَةٍ قَدْرَتِهِ.. كَمَا جَاءَ بِالرِّسَالَةِ إِلَى الْعِبْرَانِيِّينَ الْأَصْحَاحِ الْأَوَّلِ الْعَدَدِ الثَّلَاثِ.^٤

أَظْهَرَ بَطْرُسَ دَهْشَتَهُ. إِذْ كَيْفَ أَنْ ابْنَ اللَّهِ الَّذِي تَنَازَلَ "أَخَذًا صُورَةَ عِبْدٍ صَانِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ.. وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ كإِنْسَانٍ.. وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتِ مَوْتِ الصَّلِيبِ".. وَلَكِنَّ الرَّبَّ يَسُوعَ أَجَابَهُ بِأَنَّهُ سَيَفْهَمُ فِيمَا بَعْدُ.. فَلَقَدْ قَالَ لَهُ الرَّبُّ: "الَسْتَ تَعْلَمُ أَنْتَ الْآنَ مَا أَنَا أَصْنَعُ وَلَكِنَّكَ سَتَفْهَمُ فِيمَا بَعْدُ". وَلَكِنْ بَطْرُسَ مَا أَرَادَ أَنْ يَنْتَظِرَ

^١ إنجيل يوحنا ١٣: ٤ - ٥

^٢ إنجيل يوحنا ٦: ١٥ & ١٨: ٣٣ - ٣٦ ، إنجيل متى ٦: ١٠ ، إنجيل لوقا ١١: ٢

^٣ إنجيل يوحنا ١٢: ١٣ & ٦: ٦٩

^٤ إنجيل متى ٨: ٣ ، مرقس ٨: ٢٢ ، لوقا ٧: ١٤ ، الرسالة إلى العبرانيين ١: ٣

ليفهم فيما بعد وأصرّ على مفهومه.. لم يقبل أن يتنازل السيد المسيح إلى هذا القدر من الاتضاع.. فقال في إصرار: "لن تغسل رجلي أبدا" .. فأجابه يسوع: "إن كنت لا أغسلك فليس لك معي نصيب"^١.

ترجع بطرس عن إصراره لأنه لم يرد أن يحرم نفسه من نصيبه مع الرب.. فإن كان الرب قد اختار هؤلاء الرجال البسطاء ليؤسس بهم ملكوتاً أبدياً.. فلا بدّ لهم أن يعرفوا مبادئ هذا الملكوت دون خلط مع مبادئ أرضية.. لا بدّ من التخلي عن المفاهيم البشرية لاستقبال الحكمة النازلة من فوق.. عرفهم الرب أن مبادئ ملكوت الله هو المحبة.. وأن ابن الله تبارك اسمه تنازل لا لسبب إلا لأنه أحبنا.. وما عمله معهم هو عمل المحبة العجيبة.

لقد غسل الرب رجلي بطرس.. وبعد أن أنهى السيد غسل أرجل جميع التلاميذ أخذ ثيابه واتفأ.. وقال لهم: "أنفهمون ما قد صنعتُ بكم؟. أنتم تدعونني معلماً وسيداً وحسناً تقولون لأنني أنا كذلك.. فإن كنتُ وأنا السيدُ والمعلمُ قد غسلتُ أرجلكم.. فأنتم يجبُ عليكم أن يغسلَ بعضكم أرجل بعض.. لأنني أعطيتكم مثلاً حتى كما صنعتُ أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً" .. ما أروع المثل الذي أعطاه الرب يسوع المسيح لتلاميذه!

كان تلاميذ المسيح إثني عشر وغسل الرب أرجل الإثني عشر.. غسل رجلي تلميذاً كان الرب يعرف عنه أنه سيبيعهُ بأبخس ثمن أي ثلاثين من الفضة!.. يا للعجب!!.. انحنى يسوع على قدمي يهوذا يغسلهما ويُشْفهما ليسرع ذلك بهما إلى تنفيذ مؤامرة لصلب سيده.. كان الرب يعرف عنهما كل شيء.. فعن يهوذا أشار الرب يسوع بالقول: "وأنتم طاهرون ولكن ليس كلكم.. لأنه عرف مسلمةً لذلك قال يسوع: لستم كلكم طاهرين" .. وعن سمعان بطرس أشار إلى أنه سينكره إذ قال له: الحق الحق أقول لك لا يصيح الديك حتى تنكرني ثلاث مرات^٢.

إن وجدنا تفسيراً لما صنعتهُ الرب مع العشرة.. فكيف نفسر ما صنعتهُ الرب مع هذين التلميذين؟!.. نفسره بما سبق أن قلناه: أن هناك مبدأ واحداً لملكوت الله وهو مبدأ المحبة.. لذلك استهل الرسول يوحنا حديثه عن موضوع غسل أرجل التلاميذ بالقول: "إذ كان قد أحب خاصته الذين في العالم أحبهم إلى المنتهى" .. لقد "قام عن العشاء وخلع ثيابه وأخذ منشفة وأترر بها ثم صب ماءً في مغسل.. وابتدأ يغسل أرجل التلاميذ ويمسحها بالمنشفة التي كان مترراً بها" .. ولم يستثن من سبيعه بئس بخس ومن سيبس ويلعن مؤكداً أنه لا يعرفه!

إن فحصنا قلب الرب وهو يغسل أرجل تلاميذه.. إن جازَ هذا التعبير.. لوجدنا حباً عميقاً عجباً لهم جميعاً إذ أنه قد أحب خاصته إلى المنتهى.. وإن فحصنا قلب الرب وهو معلق على الصليب.. لوجدنا حباً عميقاً عجباً لي ولك عزيزي القارئ ولكل العالم.. حباً عميقاً عجباً أتى به إلى الجلجثة.. نعم! لقد أحبنا إلى المنتهى!

ربما صادفنا يوماً من يماثل بطرس يسبُ فينا ويلعن ويُكرهُ في جحود محبة أظهرناها له وحسن معاملتنا بها معه.. أو ربما صادفنا يوماً من يماثل يهوذا يقبلنا قبلاات غاشة وعلى استعداد أن يبيعنا بأبخس الأثمان.. فهل نتخذ الرب يسوع مثلاً نقدي به؟!.. لبيتنا نطيعه إذ يقول لنا: "لأنني أعطيتكم مثلاً حتى كما صنعتُ أنا بكم تصنعون أنتم أيضاً" .. إن سمحنا لمحبة الله أن تنسكب بغنى في قلوبنا سوف نحب إخوتنا كما أحب المسيح خاصته.. "أحبهم إلى المنتهى" .. لقد أذابت محبة الرب قلب بطرس فعاد إليه باكياً بكاءً مراراً.. وللأسف سمح يهوذا للشيطان أن يدخله ويملا قلبه بالخيانة والغدر فأعماه عن نبع المحبة الفيض وملا قلبه بئس قاتل فشنق نفسه!^٣

أخي الحبيب.. أدعوك كي تسكب قلبك أمام الرب وتشارك معي في تلك الصلاة: أبانا السماوي.. يا من أحببتني إلى المنتهى أشكرُك وأعظم القدوس.. فلقد أرسلت الابن الوحيد ربي يسوع الذي سقك دمه الطاهر من أجل مغفرة خطاياي ولضمان حياتي الأبدية.. أتى إليك نادماً تائباً ومعتزفاً بأنني أخطأت إليك.. أرفع صلاتي في اسم يسوع فادى وثقاً أنك تستجيب لصلاتي.. حسب وعدك الصادق.. أن من يقبل إليك لا تخرجه خارجاً.

أخي القارئ العزيز.. إن أردت سماع تلك الرسالة أو غيرها ستجد ذلك في:

<http://www.muhammadanism.org/Media/Audio/BetterLife/Default.htm>

^١ إنجيل متى ١٦: ١٦ ، رسالة بولس الرسول إلى مؤمنى فيلبى : ٦ - ٨
^٢ إنجيل يوحنا ١٣: ٣٨ ، إنجيل متى ٢٦: ١٥
^٤ إنجيل يوحنا ١٣: ٢١ - ٢٧ ، إنجيل لوقا ٢٢: ٤٧ & ٤٨ & ٦٢ ، إنجيل متى ٢٦: ٢٥